

الحرية والمسؤولية

الدرس
20

أهداف الدرس

1. أن أتعرف مفهوم الحرية والمسؤولية في الفلسفة الإسلامية؛
2. أن أثبت علاقة الحرية بالمسؤولية؛
3. أن أتمثل قيمتي الحرية والمسؤولية في مواقفي وسلوكي .

تمهيد

الحرية والمسؤولية مفهومان متلازمان ، فالحرية ليست مجرد تحرر من القيود الخارجية ، بل هي خضوع واع لإرادة الله وشرعه ، ووسيلة لتحقيق الأمن والظفر بنعومة البال فكرا وخلقاً واجتماعاً ، وفي الوقت ذاته الحرية الإنسانية موصولة العرى بمسؤولية الإنسان عن تبعاته الاختيارية ، وقراراته وتصرفاته .

فما مفهوم الحرية؟ وما مفهوم المسؤولية؟ وما علاقة الحرية بالمسؤولية؟

نص الانطلاق

1. يقول الإمام الفارابي: «فعندما تحصل هذه المعقولات للإنسان يحدث له بالطبع تأمل ، وروية ، وذكر ، وتشوق إلى الاستنباط ، ونزوع إلى بعض ما عقله أولاً ، وشوق إليه وإلى بعض ما يستنبطه ، أو كراهته . والنزوع إلى ما أدركه بالجملة هو الإرادة ، فإن كان ذلك النزوع عن إحساس أو تخيل ، سمي بالاسم العام وهو الإرادة ، وإن كان ذلك عن روية أو عن نطق في الجملة سمي الاختيار ، وهذا يوجد في الإنسان خاصة» . [آراء أهل المدينة الفاضلة ، ص 105] .

2. يقول ابن رشد: «... أن الله تبارك وتعالى قد خلق لنا قوى نقدر بها على أن نكتسب أشياء هي أضداد ، لكن لما كان الاكتساب لتلك الأشياء ليس يتم لنا إلا بمواتاة الأسباب التي سخرها الله لنا التي خارج وزوال العوائق عنها ، كانت الأفعال المنسوبة إلينا تتم بأمرين

جميعاً. وإذا كان ذلك فالأفعال المنسوبة إلينا أيضاً يتم فعلها بإرادتنا وموافقة الأفعال التي من خارج لها، وهي المعبر عنها بقدر الله. وهذه الأسباب التي سخرها الله من خارج ليست هي متممة للأفعال التي تروم فعلها أو عاقبة عنها فقط؛ بل وهي السبب في أن نريد أخذ المتقابلين، فإن الإرادة هي شوق يحدث لنا عن تخيل ما، أو تصديق بشيء. وهذا التصديق ليس هو لا اختيارنا، بل هو شيء يعرض لنا عن الأمور التي من خارج». [مناهج الأدلة، 226-227]

الفهم

استخلاص المضامين:

– أستخلص من النصين مفهوم الحرية وعلاقتها بالمسؤولية.

الشرح:

– رويّة: الرويّة: التدبر والتأمل.
– نزوع: ميل.

التحليل

نتناول هذا الدرس من خلال المسألتين الآتيتين:

المسألة الأولى: مفهوم الحرية والمسؤولية في الفلسفة الإسلامية

إن الحرية والمسؤولية من القيم الإنسانية التي شغلت أنظار المفكرين المسلمين-علماء الكلام والفلاسفة- منذ أقدم العصور، مفهومًا وموضوعًا ووظيفة وأثرًا، فما مفهوم الحرية؟ وما مفهوم المسؤولية في الفلسفة الإسلامية؟

1. مفهوم الحرية: قال ابن فارس: «الحاء والراء في المضاعف له أصلان: فالأول ما خالف العبودية وبرئ من العيب والنقص. يقال: هو حر بين الحرورية والحرية. ويقال طين حر: لا رمل فيه...» [معجم مقاييس اللغة مادة حر]. وقال ابن سيده: «والحرية من الناس: أختيارهم وأفاضلهم. والحر من كل شيء: أعتقه. وحر الفاكهة: خيارها. وحر كل أرض: وسطها وأطيئها. والحرّة والحر: الطين الطيب والرمل الطيب. وحر الدار: وسطها وخيرها. والحر: الفعل الحسن».

[المحكم والمحيط الأعظم، فصل الحاء والراء، بتصرف]

فالحرية هي التحرر من القيود، وهي نقيض العبودية. والسلامة من النقص، وهي كذلك الأصاله والخيرية والأفضلية والفعل الحسن وغيرها من المعاني اللغوية التي يفيدها مصطلح «الحرية» التي ارتبطت في العصر الجاهلي بالحالة الاجتماعية؛ فالحر نقيض العبد، وبمجيء الإسلام اتسع معنى الحرية ليشمل مجالات متعددة: عقدية، وفكرية فلسفية، وخلقية، واجتماعية؛ فقد استعملت الحرية في مساقات متعددة؛ فاستعملها الفقهاء في أحكام العبيد والأحرار، وعلماء السلوك بمعنى التحرر من الشهوات، يقول الشريف الجرجاني: «الحرية في اصطلاح أهل الحقيقة الخروج عن رق الكائنات وقطع جميع العلائق والأغيار وهي على مراتب حرية العامة عن رق الشهوات وحرية الخاصة عن رق المرادات لفناء إرادتهم من إرادة الحق، وحرية خاصة الخاصة عن رق الرسوم والآثار لانمحاقهم في تجلي نور الأنوار». [التعريفات 116/1]

وتناولها المتكلمون والفلاسفة المسلمون بلفظ الإرادة والاختيار في فعل الإنسان، في مقابل الجبر؛ يقول الإمام الفارابي: «... فعندما تحصل هذه المعقولات للإنسان يحدث له بالطبع تأمل، وروية، وذكر، وتشوق إلى الاستنباط، ونزوع إلى بعض ما عقله أولاً، وشوق إليه وإلى بعض ما يستنبطه، أو كراهته. والنزوع إلى ما أدركه بالجملة هو الإرادة، فإن كان ذلك النزوع عن إحساس أو تخيل، سمي بالاسم العام وهو الإرادة، وإن كان ذلك عن روية أو عن نطق في الجملة سمي الاختيار، وهذا يوجد في الإنسان خاصة». [آراء أهل المدينة الفاضلة، ص 105].

2. مفهوم المسؤولية: مشتقة من فعل: سألَه كذا، وعن كذا، وبكذا: بمعنى واحد، يقال: سألَه الشيء، وعن الشيء... سألتَه الشيء بمعنى استعطيته إياه، وسألته عن الشيء: استخبرته. [تاج العروس من جواهر القاموس للزبيدي، مادة «سأل» بتصرف]. وقال الراغب الأصفهاني: «سأل: السؤال استدعاء معرفة، أو ما يؤدي إلى المعرفة، واستدعاء مال أو ما يؤدي إلى المال؛ فاستدعاء المعرفة جوابه على اللسان، واليد خليفة له بالكتابة أو الإشارة، واستدعاء المال جوابه على اليد واللسان خليفة لها إما بوعد أو ببرد». [المفردات في غريب القرآن 250/1] إن مفهوم المسؤولية في الفلسفة الإسلامية يرتبط أساساً بالحرية، والعقل؛ فالعقل مناط التكليف وأساس المسؤولية، ويمتد مفهوم المسؤولية عند الفلاسفة المسلمين (- الكندي - الفارابي - الغزالي - ابن رشد) ليكون جزءاً من نظرية الإنسان والكون؛ فالإمام الفارابي ربط المسؤولية بـ«المدينة الفاضلة»؛ حيث يكون الإنسان جزءاً في بناء هذه المدينة الفاضلة ومسؤولاً عن أفعاله خيرها وشرها، يقول الإمام الفارابي: «فالخير الأفضل والكمال الأقصى يُنال بالمدينة، لا بالاجتماع الذي هو أنقص منها، ولما كان شأن الخير في الحقيقة

أن يكون ينال بالاختيار والإرادة، وكذلك الشرور إنما يكون بالإرادة والاختيار، أمكن أن تجعل المدينة للتعاون على بلوغ بعض الغايات التي هي شرور؛ فلذلك كل مدينة يمكن أن يُنال بها السعادة. فالمدينة التي يقصد بالاجتماع فيها التعاون على الأشياء التي تُنال بها السعادة في الحقيقة، هي المدينة الفاضلة. والاجتماع الذي به يُتعاون على نيل السعادة هو الاجتماع الفاضل. والأمة التي تتعاون مدنها كلها على ما تنال به السعادة هي الأمة الفاضلة». [آراء أهل المدينة الفاضلة، ص 118]

3. علاقة الحرية بالمسؤولية: مسؤولية الإنسان عن فعله تابعة لإرادته واختياره يقول الإمام الفارابي-وهو يتحدث عن القوى الحادثة في الإنسان- القوة الغاذية، القوة الحاسة، القوة المتخيلة، ووظيفة هذه القوى-: «... ثم من بعد ذلك يحدث فيه القوة الناطقة التي بها يمكن أن يعقل المعقولات، وبها يميز بين الجميل والقبيح، وبها يحوز الصناعات ويقترن بها أيضا نزوع نحو ما يعقله». [آراء أهل المدينة الفاضلة، ص 87]. فالإنسان مسؤول عن إرادته واختياراته، وأنه إن فعل ما لا يريد، أو خلاف ما يريد كان عديم العقل، يقول الكندي: «فينبغي أن لا نفعل ما يحزننا فإننا إن فعلنا ما يحزننا فالإمساك عن فعله إلينا؛ إذ فعلنا والإمساك عنه إلينا، فنحن إذا كنا نفعل إما أن نفعل ما نريد، أو ما لا نريد. فإن كنا نفعل ما نريد- ولسنا نريد أن نحزن- فنحن نريد ما لا نريد. وهذه من خاصية العادم عقله؛ فنحن إذن عدما لعقولنا». [رسالة الحيلة لدفع الأحزان، ص 12]

المسألة الثانية: طبيعة الفعل الانساني الحر المسؤول

إن الحرية والمسؤولية في الفعل الانساني كانت مثار نقاش بين علماء الكلام والفلاسفة المسلمين، هل للإنسان حرية- إرادة واختيار- مطلقة، أم أن حريته- إرادته واختياره- تابعة لإرادة الله تعالى، يرى ابن رشد: «أن الله تبارك وتعالى قد خلق لنا قوى نقدر بها على أن نكتسب أشياء هي أضرار، لكن لما كان الاكتساب لتلك الأشياء ليس يتم لنا إلا بمواتاة الأسباب التي سخرها الله لنا التي خارج وزوال العوائق عنها، كانت الأفعال المنسوبة إلينا تتم بأمرين جميعا» [مناهج الأدلة، ص 226-227]، ويقول الامام الغزالي: «... فانظر الآن إلى أهل السنة كيف وُفقوا للسداد، ورُشّحوا للاقتصاد في الاعتقاد. فقالوا: القول بالجبر محال باطل، والقول بالاختراع اقتحام هائل، وإنما الحق إثبات القدرتين على فعل واحد. والقول بمقدور منسوب إلى قادرين، فلا يبقى إلا استبعاد توارد القدرتين على فعل واحد، وهذا إنما يبعد إذا كان تعلق القدرتين على وجه واحد، فإن اختلفت القدرتان، واختلف وجه تعلقهما فتوارد التعلقين على شيء واحد غير محال». [الاقتصاد في الاعتقاد، ص 156-157]

وقد كان النقاش عن حرية ومسؤولية الإنسان عن أفعاله انطلاقاً من ظواهر القرآن الكريم؛ قال الرازي: «قالت المعتزلة: قوله تعالى: ﴿بِمَرَشَاءَ قَلْبُومِنْ وَمَرَشَاءَ قَلْبُكَفِرْ﴾ [الكهف 29] صريح في أن الأمر في الإيمان والكفر والطاعة والمعصية مفوض إلى العبد واختياره، فمن أنكر ذلك فقد خالف صريح القرآن، ولقد سألتني بعضهم عن هذه الآية فقلت: هذه الآية من أقوى الدلائل على صحة قولنا-الأشاعرة-، وذلك لأن الآية صريحة في أن حصول الإيمان وحصول الكفر موقوف على حصول مشيئة الإيمان وحصول مشيئة الكفر، وصريح العقل أيضاً يدل له؛ فإن العقل الاختياري يمتنع حصوله بدون قصد إليه، وبدون الاختيار له، إذا عرفت هذا فنقول: حصول ذلك القصد والاختيار إن كان بقصد آخر يتقدمه واختيار آخر يتقدمه لزمه أن يكون كل قصد واختيار مسبوقاً بقصد آخر إلى غير النهاية وهو محال، فوجب انتهاء تلك القصد وتلك الاختيارات إلى قصد واختيار يخلقه الله تعالى في العبد على سبيل الضرورة عند حصول ذلك القصد الضروري، والاختيار الضروري يوجب الفعل، فالإنسان شاء أو لم يشأ إن لم تحصل في قلبه تلك المشيئة الجازمة الخالية عن المعارض لم يترتب الفعل، وإذا حصلت تلك المشيئة الجازمة شاء أو لم يشأ يجب ترتب الفعل عليه، فلا حصول المشيئة مترتب على حصول الفعل، ولا حصول الفعل مترتب على المشيئة، فالإنسان مضطر في صورة مختار». [مفاتيح الغيب 101/21-102]

قال الرازي في تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولٌ﴾ [الإسراء 36]... ظاهر الآية يدل على أن هذه الجوارح مسؤولة، وفيه وجوه: الوجه الأول أن المراد أن صاحب السمع والبصر والفؤاد هو المسؤول؛ لأن السؤال لا يصح إلا ممن كان عاقلاً، وهذه الجوارح ليست كذلك، بل العاقل الفاهم هو الإنسان،... والوجه الثاني أن تقرير الآية أن أولئك الأقوام كلهم مسؤولون عن السمع والبصر والفؤاد فيقال لهم: استعملتم السمع في ماذا أفي الطاعة أو في المعصية؟. وكذلك القول في بقية الأعضاء، وذلك لأن هذه الحواس آلات النفس، والنفس كالأمير لها، والمستعمل لها في مصالحها، فإن استعملتها النفس في الخيرات استوجبت الثواب، وإن استعملتها في المعاصي استحققت العقاب». [مفاتيح الغيب 168/20 بتصرف]

التقويم

1. أعرف الحرية والمسؤولية، وأبرز العلاقة بينهما؛
2. أوضح طبيعة الفعل الإنساني بين الحرية والمسؤولية.

الاستثمار

«الأفعال التي تصدر عن إرادة واختيار، هي التي يكون فاعلها مستوجباً للمدح أو الذم، والثواب أو العقاب».

أناقش هذه القولة مبرزاً العلاقة بين الحرية والمسؤولية.

الإعداد القبلي

أبحث عن أهم القيم الاجتماعية في الفلسفة الإسلامية.